ROWAQ MAYSALOON
رواق ميسلون
دراسات سياسية وثقافية
Political and Cultural Studies
مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الثورة السوريّة: هُزمت أم ما زالت مستمرّة؟

في هذا العدد

■ حوار العدد؛
- بينت شيلر
- سميح شقير

■ راتب شعبو؛
النجاح والإخفاق في الثورة
■ محمد عمر كرداس؛
الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

■ شخصية العدد؛
إلياس مرقص

العدد التاسع نيسان/ أبريل 2023

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العدد التاسع
نيسان/ أبريل 2023

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري سامر إسماعيل

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

شخصية العدد
إلياس مرقص

■ الاشتراكية ضرورة يجب أن توعى، الاشتراكية ليست حتمية؛ **إلياس مرقص**

■ إلياس مرقص؛ التأسيس يبدأ بالمفاهيم والوعي الكوني؛ **الزهراء سهيل الطشم**

■ مفهوم العصر؛ تفلسف على عتبة إلياس مرقص؛ **مضر رياض الدبس**

بعض مؤلفات الياس مرقص

إلياس مرقص؛ التأسيس يبدأ بالمفاهيم والوعي الكوني

الزهراء سهيل الطشم

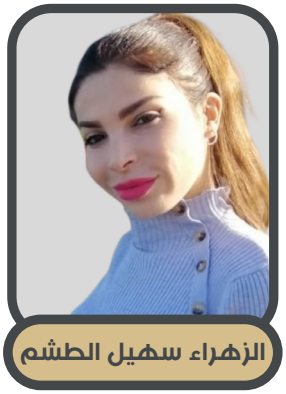
الزهراء سهيل الطشم

باحثة لبنانية، حائزة على شهادة الدكتوراه في الفلسفة المتخصّصة بالفكر الغربي الحديث والمعاصر من المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية، دبلوم متخصِّص بالعلوم الاجتماعية من الجامعة اللبنانية- معهد العلوم الاجتماعية، حائزة على شهادة تخصّص بالتربية من الجامعة اللبنانية- كلية التربية، أستاذة مادة الفلسفة العربية والفلسفة الغربية في التعليم الثانوي الرسمي، نشرت العديد من المقالات والبحوث في دوريات ومجلات ومواقع لبنانية وعربية.

مقدّمة

حَبُل القرن التاسع عشر، الزمن الذي هو بمنزلة مؤشر كثيف الدلالات بالنسبة للعرب وتموضعهم الحضاري المأزوم، بإشكاليات كثيرة ومتفرعة ومتشابكة ومعقّدة لمّا تزل إرهاصاتها مستمرّة حتى لحظتنا الراهنة. طبعا مثارات الإشكال النظري والإبهام الفكري التي تلفّ معضلة الأزمة الحضارية العربية لا يمكن تبسيطها وتسطيحها أو اختزالها في عنصر دون آخر. فالمعطى الثقافي-الاجتماعي لا يقلّ تأثيرًا عن طغيان السياسي وتدخّلاته، ولكن ما يعنينا هو إسهام المفكرين العرب الذين انهمموا بهذه القضية وأشبعوها تنظيرًا وتحليلًا، محاولين تشخيص مكامن العجز والتدليل على مسبّبات الفوات الحضاري، وبالتالي محاولاتهم اجتراح حلول واستجلاب أفكار هي بمنزلة مقترحات للخروج من حالة التردّي البنيوي الذي يشمل الكل الحضاري العربي بكافة مستوياته. ربّما أسفر هذا الخوض الفكري عن إيغال في تعقيد المشهد، لأنه أنتج مراكمة طبقات من التحليلات التنظيرية التي على أهميتها وثرائها، إلا أنها حادت عن الواقع الذي من المفترض أنها انطلقت منه، فانحرفت باتجاه استدعاء المخارج من عوالم أخرى بعيدة في الزمان والمكان، ما أفضى إلى وجود نهضويين ومفكّرين حداثيين تغريبيين من جهة، أو نهضويين تراثيين من ناحية أخرى. وما بين الثنائيات المتجاذبة للفكر العربي المتأرجح بين الأصالة والمعاصرة والتراث والحداثة والشرق والغرب وغيرها من متقابلات تجد من يتبناها ويحاجج بها من قبل المفكرين العرب، لاذ الواقع العربي بمجتمعاته وناسه وإنسانه محجوبًا وراء ركم من التيارات الفكرية، فصار بإمكاننا أن نتحدث عن نهضويين عرب وليس عن نهضة عربية حقيقية وجذرية عميقة.

لا يمكن الاكتفاء بأحكام اعتباطية تقويمية سريعة لهذه المرحلة الصاخبة، والتي يفور صخبها جرّاء صدمة حضارية كشفت عن نأي وتفاوت شاسعين وعاهما المفكّر وعاش قلق التباين المعرفي والعلمي والانتساء الفكري بين عالمه وعالم الآخر. هذا الآخر(الغرب)، ذو الوجوه المتعدّدة المتسيّد بنموذجه الحضاري والذي فرض ربّما بريادته المقتحمة لعوالم الكون الأخرى أشكالا من ردود الفعل في كيفية قبوله واقتباله. فالتغريبي انقاد إلى النمذجة الحضارية للغالب، والتراثي على تلويناته نفر رافضًا، منفعلًا، منتكسًا وناكصًا إلى ماضيه شأن المغلوب المتشنّج جراء هشاشة هويّته وخشيته من تضييعها.

استمرّ العرب في التفاعل مع نتاجات الغرب ونشط استيراد التيارات الفكرية والسياسية واستجلاب الأفكار الفلسفية حتى مرحلتنا الراهنة. حضرت القومية والماركسية كمشاريع ورؤى بديلة عتيدة، منوط بها التغيير المأمول وتحوّلت إلى حراكات سياسية وأطر حزبية استقطبت بالانتظارات المعلّقة عليها، المفكرين ورجال السياسة. اختلطت المفاهيم النظرية بالبراكسيس العملي، وتخلّلت شوائب السياسة وإيحاءاتها محاولات ممارسة النظرية. واصطدم الإسقاط النظري الهابط من عل بحيثيات الواقع وخصوصيته، وظهرت إشكاليات التنظير والتأويل والاجتهاد وإعادة التركيب والتشكيل والصياغات والتصوّرات الفكرية ضدًّا لسكونية الفكرة التي تصلّبت الأحزاب بمبدأ التمسّك بها كنصوص منزلة. واستمرّ المشهد الفكري العربي على حاله منذ القرن التاسع عشر حتى النصف الثاني من القرن العشرين؛ استيراد لنظريات وأفكار وتيارات واتجاهات ومذاهب فلسفية وفكرية غربية والزج بها في واقع ليس لها، دون محاولة تبيئتها في بيئة ومناخ حضاريين بالغي الخصوصية.

وعى المفكرون المنهمّون بقضية التغيير أن مقاربة هذه الإشكالية المزمنة تتطلّب التجهّز بمعاول فكرية أو ما يسمّيه الياس مرقص[1] «المبضع التاريخي السياسي والجدلي». والمبضع هو أداة تبدأ أولًا بالحفر في المفاهيم نفسها، لفحصها والتأكّد من تمكنّننا منها لنصوّب استعمالها في وجهة «التقدّم»، الذي بقي توقًا عربيًا، في حين تخطّى الفكر الغربي هذه اللازمة وانهال عليها ناقدًا صدقيّتها، مشكّكًا فيها بعد أن تحوّلت إلى عقيدة وأيديولوجيا فارغة من محتواها.

أولًا: مرقص؛ التأسيس يبدأ بالمفاهيم

الياس مرقص هو واحد من المفكّرين العرب الذي صوّب شغله الفكري نحو العمل الجاد والأصيل بهدف «الانخراط النقدي في مواجهة معضلات الفكر والواقع العربيين». وأصالة اشتغاله تظهر على مستويين متشابكين؛ أولًا تشديده على الانطلاق من «معرفة الواقع» و«الإمساك بمعضلات التاريخ بأدوات الوعي الدقيق»، وثانيًا إدراكه أنّ رؤية الواقع وفهمه وبالتالي تغييره تقتضي «التأصيل النظري» أو «التأسيس النظري» للمفاهيم والأفكار لتخليصها من الشيئية ولاستعادتها حيويتها وديناميتها وتحريرها من ميتافيزيقا المفاهيم وتعاليها. فالحداثة يجب استدعاؤها إلى «ساحة الفكر

العربـي حيـث يجـب فتـح هـذه المعركـة وخوضهـا معركـة الفكـرة والمفهـوم والفكـر»[2]. فالتغييـر مسـار طويـل يبـدأ بتحديـد المفاهيـم.

ولكـن اختيـار مرقـص أن يدخـل معتـرك ضبـط زحمـة المفـردات والنظريـات، وإلحاحـه علـى امتلاكـه جاهزيـة «نقـد الاسـتعمال العمومـي والعشـوائي للمفاهيـم»[3]، لا يعنـي أنّـه حيّـد نفسـه عـن اقتحـام جوانـب الواقـع العربـي، ولكنّـه افتـرض أنّ مفاتيـح قـراءة واقعنـا والإحاطـة بتعقيداتـه، لفهمـه ومـن ثـمّ تغييـره ووضعـه علـى درب التقـدّم، تبـدأ مـن خـلال تنقيـة المناظيـر التـي تقـارب حـال الشـعب العربـي. وحتـى لـو كانـت الأدوات النظريـة والمفاهيم-المفاتيـح التـي يسـتعملها المفكـرون العـرب، وتلهـج بهـا خطابـات المنظّريـن فـي الأحـزاب التقدّميـة تغـبّ مـن القامـوس الحداثـي الغربـي، فـإنّ هـذه المفاهيـم والنظريـات والأفـكار تخضـع لمحـكّ الواقـع الـذي وحـده يختبـر جدواهـا وقيمـة معناهـا أو يكشـف صنميّتهـا وجمودهـا وبالتالـي فقدانهـا وظيفتهـا المرتجـاة فـي تحسـين حـال المجتمعـات العربيـة. وهـذا مـا حصـل فعـلًا «إنّ الواقـع العملـي خطّـأ الفكـر النظـري فـي نقـاط عديـدة، وليسـت دومًـا ثانويـة...لا يمكـن أن يأتـي الواقـع العملـي مصداقًـا لـكل مـا جـاء فـي الفكـر النظـري، ولأننـا نسـينا ذلـك فقـد زاد التناقـض بيـن الواقـع والفكـر وحـدث تباعـد بيـن العمـل والنظـر»[4]. إذًا انطلاقًـا مـن التحـت (الواقـع) والتزامًـا بغايـة تغييـره، انتهـج مرقـص النقـد الـذي تحصّـن بـه لمقارعـة «تصنيـم الكلمـات» ونقـل المفاهيـم مـن «الرمزيـة والشـيئية إلـى المفهوميـة والواقعيـة»[5]. مـن هنـا، فقـد نافـح مرقـص أكبـر المفكّريـن العـرب وحاججهـم مماحـكًا، لا يمـلّ، يحفـر فـي أصـل الكلمـة ويغـوص فـي نسـب المصطلـح، ويتقصّـى مولـده مزيـلًا عنـه طبقـات الاسـتعمال والتوظيـف التـي تحرفـه عـن معنـاه. فتـراه فـي كتابـه «نقـد العقلانيـة العربيـة»[6] يناقـش مطـوّلًا ومفصّـلًا ومسـتطردًا صـادق جـلال العظـم وناجـي علـوش وبسـام طيبـي وبرهـان غليـون وآخريـن، محـذّرًا مـن سـقوط المثقـف فـي فـخ توثيـن الكلمـات وتعظيـم المصطلحـات وتفخيـم المفـردات. وهـو لا يكتفـي بالاسـتطالة الزاخـرة بثقافـة قـارئ متعمّـق تثـري النـص المرقصـي وترفـده بموسـوعية صاحبهـا الـذي احتـوى عقلـه علـى علـوم ومعـارف وفلسـفات انصهـرت فـي بوتقـة فكـره المجهّـز بالنقـد، فتـراه يسـند متـون نصوصـه بتذييـل وهوامـش تضاهـي النـص أهميـة حجمًـا ومضمونًـا.

يبيّـن القامـوس المرقصـي الزاخـر ولـع صاحبـه بالمصطلـح والمفـردة والكلمـة، فتـراه يضبطهـا، يقـوّم اسـتعمالها، يفـرد لهـا علـم أنسـاب خـاصٍّ بهـا، يؤصّلهـا، ينحـت، يشـتق، يجتهـد ويجهـد فـي تبييـن دقّـة معناهـا. وغزيـرة هـي الكلمات-المفاهيـم التـي تلفتـك وتسـتوقفك (الغنوزيولوجيـا، التمغـرب، الأشـيائية، العيانيـة، المكاونـة، التـكاون، اللـوات (جمـع لـو)، الترخنـة بمعنـى التأريـخ، العلينـة (مـن التعالـي) Transcendantalisation، العيانيـة، الأسـطرات، العلاقيـة، الثورانـي، التهـاوي مـن الهويّـة، الإنخـلاع والتمغـرب بمعنـى الاسـتلاب Alienation، إنفـكار، المفكـور أي المفكّـر فيـه، الفكرنـة، الذهننـة، المقوليـة، الأفراديـة أي الفرديـة، النتوجيـة مـن النتـاج والإنتـاج، الإيجابويـة، الدوراتـي، الفكرتيـة، النفييـة مـن النفـي

(2) الياس مرقص، العقلانية والتقدّم، ص8
(3) المصدر نفسه، ص16.
(4) الياس مرقص، الماركسية والشرق، ص10.
(5) الياس مرقص، العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص21.
(6) المصدر نفسه.

والسلب ،Negation) وربّما يذهب ذوو النفس القصير في القراءة إلى أن كثرة هذه المفردات تدخل القارئ في متاهة المصطلحات المستوردة أو المنحوتة بحجة أنها تُنبت صعوبات تبذّر الجهد وتصرف الانتباه عن المعنى السياقي العام فتحول دون تحقيق فهم النص المرقصي والإحاطة بمبتغاه. لكن مرقص يتصدّى لهذا الاحتجاج الضئيل الذي لا يصمد أمام صلابة اقتناعه بأن فوضى الرؤى النظرية أو انعدامها ناتجان عن كون واقعنا اللغوي يحتوي على أقانيم لغوية، ويعج بـ «مصطلحات غير مضبوطة، متسيّبة في الاستعمال ومع الاستعمال» وهذا ما يؤدي إلى «تضييع المفهوم» أو لفلفة المفهومية»[7]. فبلاؤنا كأحزاب تقدّمية ترفع طروحاتٍ تغييريةً ناشئ من أن «لا عمل واع بالمفاهيم، لا فحص لطبيعة المفاهيم، لا جدل لا عقل»[8]. والفكر الواعي أو العارف هو الذي «يعي قبل كل شيء وفوق كل شيء، أنه يستخدم كلمات، وأن يحذر كلماته أو ما يسمّيه فرنسيس بيكون أصنام اللغة، الكلمات ليست أشياء، أصنامًا، آلهة»[9]. ومرقص المتحرّز من جمود المفاهيم يعي أن هكذا مفاهيم مؤقنمة لن تودي إلّا إلى «شيئية المعرفة». وهذا النوع من المعرفة المشيّأة أو المتشيّئة أو الأشيائيةChosification منغلقة على الواقع في حين أنّ «المعرفة الحقّة في النهاية والغاية هي معرفة الواقع»[10]. ولذلك فعلى الوعي العربي أن يساعد الفكر العربي في «الانتقال من الرمزية والشيئية إلى المفهومية والواقعية»[11].

ولكن ما هو معيار دينامية المفهوم؟ وكيف تندرج الكلمات في صيرورة التغيير المنقاد حتميًا برأي مرقص نحو حتمية التقدّم؟ كيف ننفض عن المفاهيم غبار الجواهر الصمّاء الساكنة؟ كيف نحرّرها من يباس المهايا المنغلقة، لنطلقها ضاجة بالحياة، ومسكونة بالواقع، ملتئمة به، ساكنة فيه وليس فوقه؟ وكيف تصير مساهمة وفاعلة في توليد المعرفة العربية المرتجاة لتحقيق الانوجاد العربي الجديد المتأتّي من التكوّن انطلاقًا مما هو قائم في الراهن والواقع والعيني المباشر، وليس ربطًا بالهدف الآمل إلى ما يجب أن يكون؟

مسألتان أو كلمتان- مفهومان تعتبران من المركزيات المفاهيمية في فكر الياس مرقص، وهما بمنزلة الأُسّ الذي بنى عليه رؤيته التقدّمية (وهو هنا يستخدم كلمة تقدّم Progres وليس تحديثًا Modernisation أو حداثة Modernite، وذلك لأن كلمة تقدّم ماركسية-هيجلية وتتناغم مع المرحلة التاريخية التي انتمى إليها مرقص، كما أنّه وبحسب مساره الرؤيوي الخاص للنهوض الحضاري لا يتوافق مع مفكّري النهضة التغريبيين على سردية الحداثة التي تبنوها، وسنأتي على تفصيل هذه النقطة في سياق هذه الدراسة). هذان المفهومان هما العقلانية والواقع أو الواقع والعقلانية، لا يسبق أحدهما الآخر لأنهما موصولان متفاعلان متواشجان، متصلان متواصلان بعلاقة جدلية لا يجدلها إلا «العقل السليم» الذي امتلك خواص الحركة والتجاوز والنفي والسلب ونفي النفي، والنقاضة وإفساد الراكد من المعارف الجاثمة على ركام الفكر الخابي والمطمئن، العقل الرابض عند فوّهة النقد

(7) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص32.
(8) نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص349.
(9) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص24.
(10) المصدر نفسه، ص7.
(11) المصدر نفسه، ص7.

والمتبـرّم بزيـوف السـكينة الفكريـة المخادعـة المصـادرة للواقـع والحابسـة لـه داخـل تصوّراتهـا المدّعـاة.

ليـس الفكـر العربـي الحديـث عقيمًـا ولا الواقـع العربـي عصيّـا أو منسـدًّا علـى الدخـول فـي طـور التطوّر، لكنّـه فـي حاجـة إلـى إعـادة «تأسـيس نظـري أو تأصيـل نظـري» يصوّبـان اسـتخدام العقـل العربـي لتحريـره مـن صنميـات حالـت بينـه وبيـن الواقـع. والأصفـاد التـي تأسـر الفكـر العربـي كثيـرة، وهـي لا تقتصـر فحسـب علـى تلـك الاتجاهـات والتيـارات السـلفية (بالمعنـى العـام لمفـردة السـلف) التـي توثـق العقـل العربـي إلـى تصـوّرات الماضـي، بـل حتّـى متبنّـي الفلسـفات والأفـكار والمشـاريع الحديثـة والتقدّميـة مـن ماركسـيين وعروبييـن لـم يحترسـوا مـن فـخ اللغـة الـذي يحجـز الكلمـات فـي قوالـب محنّطـة، فيحجّرهـا، ويعطّـل الروابـط والصـلات الوثيقـة بيـن الفكـر والواقع،»فـي ذهابنـا إلـى الواقـع مـن طريـق الفكـر، علينـا أن نحـذر مـن الكلمـات التـي لدينـا، فلنحـذر أصنـام اللغـة»[12]. ويلفـت مرقـص إلـى أنّ كلمـة الواقـع ليسـت بداهـة أو مسـلّمة واضحـة ويقينيـة علـى الطريقـة الديكارتيـة Claire et Distincte ينطلـق منهـا العقـل فـي بنـاء مداميـك التقـدّم التراكمـي، بـل إنّ هـذا الواقـع بالـذات مفـردة غيـر محـدّدة يشـوبها الالتبـاس وتحجبهـا اللبوسـات التـي أتـى بهـا المفكـر العربـي مـن كل حـدب وصـوب فطفـق يسـمّيه بمسـمّيات شـتّى (المـادة، الطبيعـة، الوجـود الفيزيقـي أو الفيزيائـي الماديانـي، التاريـخ...) مـن هنـا كان علـى مرقـص أن يبتكـر منهجيته الخاصـة فـي التعامـل مـع الواقـع العربـي لتعيينـه فـي الزمـان والمـكان المعيشـين بعيـدًا عـن الإسـقاطات النظريـة الطالعـة مـن ذهـن المفكّريـن العـرب، لـذا فـإنّ مرقـص يشـكّك بحاملـي فكـرة الواقـع ويعـود إلـى فكـرة الواقـع ذاتهـا ليعاينهـا بنظـره الناقـد اليقـظ والمتأهّـب، وبعـد تحديـد المفهـوم والوقـوف عنـد معنـاه الحقيقـي، نبحـث عـن المنهـج والطريـق المسـتضيئين بوضـوح المفهـوم وارتـكازًا عليـه، وهـذه هـي أصالـة التأسـيس الفلسـفي عنـد مرقـص. مـن هنـا فـإنّ مقارباتـه لقضايـا عصـره التـي انعجـن بهـا، كالنهضـة والسياسـة والعروبـة والمجتمـع والتربيـة وانتمائـه الماركسـي، انبجسـت مـن صلـة مكينـة بالواقـع وبالإصرار علـى محايثتـه، والاقتنـاع بضـرورة الإنصـات إلـى مقتضيـات المعيـش العربـي بـكل أحداثـه وخصوصيتـه. فالعـراك الفكـري يبقـى طواحيـن تناطـح السـراب مـا لـم يلتحـم بالحضـور الـدوّام والمنغـرس فـي تربـة الواقـع. ولكـن قبـل أن نتعـرّف إلـى أسـلوب مرقـص المتفـرّد فـي تحديـد مفاهيمـه وكلماتـه ربطًـا بالعقـل والواقـع، سـوف نتطـرّق إلـى مراحـل تفتّـح وعيـه المطهـوّ بأنـاة ذاتٍ صبـورة متعطّشـة للمعرفـة، شـرّعت أبوابهـا للتيـارات الفلسـفية والفكريـة الكثيـرة، وأقبلـت بشـراهة علـى تعـدّد الاختصاصـات والمعـارف والعلـوم تعـبّ منهـا، كافـة هـذه المنابـع تمـرّ بمصفـاة عقـل يفحـص كل مـا يتلقّـاه بعيـن النقـد، فتحصّنـت هـذه الـذات مـن التشـرنق داخـل المدرسـة الفلسـفية، وتبرّمـت مـن التخنـدق فـي تيـار فكـري، وتنبّهـت مـن الانقيـاد والتبعيـة إلـى غلبـة النمـاذج المسـيطرة والسـائدة التـي تبتـر الفكـر مـن تربتـه، منتقيـة تلاويـن تشـكّلها مـن اسـتقلالية فكـر ينقّـي ويفحـص ويتقصّـى ويشـكّك ويسـائل ويتمـرّد، ولكنـه يبقـى أمينًـا لصـدق حضـوره لواقعـه وللحظتـه التاريخيـة ولإرثـه الثقافـي العربـي الـذي انتمـى إليـه مرقـص ولـم يتبـرّأ منـه حـال العديـد مـن المفكريـن النهضوييـن الذيـن أخـذوا بالحضـارة الغربيـة.

ثانيًا: مرقص؛ مشارب تكوّن الفكر

احتـكّ مرقـص بالعالـم الغربـي مـن بـاب طلـب العلـم. وعلـى الرغـم مـن إعجابـه بهـذه الحضـارة إلّا أنـه

(12) المصدر نفسه، ص17.

لـم يغـب عنـه وهـو العربـي السـوري أن للغـرب قناعًـا آخـر يلبسـه خـارج تخـوم بـلاده فيصيـر مسـتعمرًا جائـرًا. ولكـنّ حسّـه العروبـي الفطـري ومعاصرتـه للاسـتعمار الفرنسـي لـم يمنعـا الشـاب المقبـل علـى الحيـاة مـن الإعجـاب بالثـورة الفرنسـية. فليـس كل منتـج غربـي ثميـن يدعـو للانبهـار، وليـس كل إفرنجـي مـرذول، فالثـورة الفرنسـية محطـة تاريخيـة عالميـة وليسـت محليـة تسـتفيد مـن ثمارهـا كل الشـعوب المتعطشـة لقيـم العدالـة والحريـة. فهـو يقـول: «كنـت متعاطفًـا جـدًّا مـع الثـورة الفرنسـية، وكنـت أنـا وغيـري نلتهـب حماسـة عندمـا نقـرأ جـان جـاك روسـو Jean Jacques Rousseau فـي وصـف المجتمـع الشـيوعي البدائـي، بـأن الثمـار للجميـع والأرض ليسـت لأحـد... يجـب أن أكـون جنديًـا فـي جيـش العدالـة ومـن أجـل السـلام والحريـة والتسـامح والعقـل والنقـد، وهـذه المقـولات هـي التـي جذبتنـي إلـى الماركسـية»[13]. هـذا التبرعـم الماركسـي مـن غيـر طريـق التمـدرس والتمذهـب، ممزوجًـا بثقافـة نقديـة فرنسـية حيّـدت الفكـر الغـض عـن التقوقـع فـي السـكولائية الماركسـية التـي تصلّبـت عندهـا الأحـزاب الشـيوعية العربيـة. والتمـرّس علـى النقـد هـو مـا حـوّل عقـل مرقـص إلـى مروحـة نقديـة طالـت: المنظومـة الحزبيـة، القوميـة، الثقافـة الغربيـة، الثقافـة العربيـة فـي صميمهـا. لا شـكّ أن الماركسـية شـكّلت المعيـن الأسـاس الـذي اغتـرف منـه، فقـرأ ماركـس وفيورباخ وأنجلـز ولينيـن وسـتالين. وتعـرّف إلـى التفريعـات التـي دفقـت مـن الماركسـية الفلسـفة الضخمـة والثـرّة، واطلـع عـن كثـب إلـى تقاطعاتهـا بحكـم الأحـداث التاريخيـة مـع الحـراكات الثوريـة وتمفصلهـا مـع الشـيوعية والاشـتراكية واليسـارية. انتقـد حتـى نفسـه المتضـرّرة مـع تطرّفـات سـتالين: «السـتالينية ألحقـت بتفكيـري ضـررًا كبيـرًا...ومـع ذلـك آمنـت بنظرياتـه (سـتالين) السـخيفة والحمقـاء»[14]. وفـي سـياق الغربلـة النقديـة الفطنـة نفسـها، وفـي مـا لـه علاقـة بالحداثـة الغربيـة التـي اسـتفاد مـن علومهـا ومنجزاتهـا، إلا أنّـه لـم يتبـنّ فكـرة اتبـاع نمـوذج التحديـث «فالمطلـوب ليـس التحديـث بـل التأسـيس، النقـص ليـس نقـص الحداثـة، بـل نقـص الأسـاس». والتحديـث المرتجـى مـن قبـل بعـض المفكّريـن هو»لحـاق بالعالـم المتقـدّم وبعلومـه المتقدّمـة، وبالعقلنـة والتنويـر»[15]. والعـودة إلـى الأسـاس لسـبر لبناتـه الأولـى، بهـدف معاينتـه مـن أجـل انتقـاء الأسـس التـي تلائمـه للبنـاء عليهـا فـي عمليـة التأسـيس هـو التـزام بالمنهجيـة الماركسـية التـي تأبـى ماديتهـا التاريخيـة التغاضـي عـن الشـرط الواقعـي التاريخـي وتجـاوزه. وهكـذا خصّـص مرقـص لذاتـه المفكّـرة والواعيـة والفاهمـة مزاجهـا الخـاص وفرادتهـا الناظـرة إلـى محيطهـا ومعطياتـه، فـلا هـو ابتهـج بالغـرب وهلّـل لـه، ولا هـو أخـذ بالتجربـة الماركسـية المتجسّـدة فـي الحكـم الشـيوعي الـذي تزعّمـه الاتحـاد السـوفياتي. ولقـد أطلـق تصريحًـا يبيّـن صـدق التزامـه مـع حريـة عقلـه المجبـول بالنقـد، بعـد المؤتمـر العشـرين للحـزب الشـيوعي السـوفياتي 1956، وكان حينـذاك برفقـة صديقـه ياسـين الحافظ[16]، إذ يقـول: «الكعبـة سـقطت» أي موسـكو، ويكمـل:

(13) طلال نعمة، حوارات غير منشورة، مصدر سابق، ص34-35.

(14) المصدر نفسه، ص39.

(15) الياس مرقص، العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص13.

(16) ياسـين الحافـظ: مفكّـر سـوري مـن مدينـة ديـر الـزور. بـدأت أولـى اهتمامـات الحافـظ الثقافيـة والسياسـية مـن خـلال مشـاركته فـي التظاهـرات والنشـاط المدرسـي وفـي جريـدة الحائـط المدرسـية حيـن كان طالبًـا ثانويًـا فـي مدرسـة «تجهيـز الفـرات». التحـق بكليـة الحقـوق في الجامعـة بدمشـق، وانتسـب إلـى حـزب البعـث عـام 1949 وانفصـل عنـه عـام 1950. اعتقـل بسـبب رأيـه عـام 1966، وبعـد إخـلاء سـبيله انتقـل إلـى بيـروت، فباريـس، ثـم عـاد إلـى بيـروت بعـد نكسـة 1967، وعـاش فيهـا حتـى وفاتـه فـي سـنة 1978. تشـبّث بالمبـادئ والأهـداف القوميـة المتمثّلـة بالوحـدة العربيـة وتحريـر فلسـطين ةالقضـاء علـى الاسـتعمار وبالاشـتراكية العلميـة وبالماركسـية اللينينيـة. عمـل علـى تعريـب

«الكعبة الوحيدة هي الضمير...أنا لست تابعًا لأي شيء حتى لسوريا، إنّي تابع لمبدأ أعلى، لست تابعًا لعائلتي أو حزبي...المنطلق الضميري هو الذي يجعلني صبورًا، ويقول لي أنّ مسعانا يجب أن ينصبّ على التحسّن لا على صنع الفردوس على الأرض»[17]. ربّما يغمز مرقص هنا من قناة مقولة البروليتاريا الماركسية بخاصّة إذا ما عرفنا رأيه غير المستسيغ لوضعية الثورة التي بشّر بها ماركس، فهي «تحوّل الأرض إلى سماء والدنيا إلى جنّة... الثورة القفزة الشاقولية إلى السماء تحمل معها السقوط حتمًا»[18]. هذا لا يعني أن مرقص لا يؤمن بحتمية التغيير، وأنه بمعركته الفكرية لا يتغيّا التقدّم وتحسّن حال العرب، ولكنه يرفض اصطناع المقولات واستزراعها في غير بيئتها، لأنها ليست سوى مزايدة، «المزاودة جلبت لنا الخراب». يصحّح مرقص النظرة، ويعيد تصويب وجهة انطلاقتها، علينا البدء من الواقع العربي، وهذا ما يسمّيه «العيانية» أي المرابطة عند الواقع والبقاء فيه والنظر من خلاله ووفق مقتضياته.

ليس أدلَّ على مرابضة مرقص عند تخوم واقعه العربي رفضه للولاءات الحزبية للرفيق الأعلى وتأليه الأخ الأكبر أي الاتحاد السوفياتي. ولكن الحسم في اشتباكه نظريًا وعمليًا وفكريًا مع الواقع بان عام 1967 بعد الهزيمة التاريخية المفصلية الكبرى أمام العدو الصهيوني، حيث قرّر تأسيس مجلة الواقع في بيروت عام 1980، ولقد عبّر عن هدف فكرة المجلة قائلًا: «وكنّا نصرّ على البعد العربي وعلى الأساس الفلسفي، وإلا ما بيمشي الحال»[19]. ومرقص معجب بالمرحلة الناصرية وما نتج عنها من وعي قومي عربي تجلّى في الحركة القومية العربية التحرّرية. وهو يذهب إلى أنّ البعد العربي الذي تحتويه هذه الظاهرة هو أكثر أصالة واستجابة لواقع الفرد العربي، وهي نجحت في اجتذابه ودغدغة شعوره القومي أكثر من الأحزاب التقدّمية. فهو يقول في هذا السياق: «إنّ أكثرية الشعب مغلقة على حزبنا وعلى الأحزاب التقدّمية أو العقائدية عمومًا...في تلك الآونة كان جمال عبد الناصر قد بدأ بصفته زعيمًا حقيقيًا، إذ كان هناك أمر جديد ينبثق هو القومية العربية التحررية، مرحلة عامية وعوامية. وهي مرحلة ديمقراطية بالمعنى اللينيني، فالمجتمع الريفي المهمّش تحرّك وبدأت السياسة تخرج كونها نضالات مجتمع حديث، أي المجتمع القديم في سوريا ولبنان والعراق ومصر دخل لأول مرّة في الحقبة السياسية. هذه الظاهرة لفتتني منذ عام 1956، وكانت إحدى مكوّنات تفكيري»[20].

ولأن فلسطين رائز رئيس للعروبة الحقّة، يفرد مرقص لها كتابه «المقاومة الفلسطينية والموقف الراهن»[21]. والتزامه بالقضية الفلسطينية مقترن بوعيه العروبي، وبإدراكه العميق أن الاحتلال

الماركسية أي تحقيق اندماجها في حركة الجماهير العربية خلال الممارسة الثورية، طرح باكرا مفهوم العلمانية ووعى ارتباطها بالمجتمع المدني وبالديمقراطية ونادى بالقومية الحديثة أو الوطنية. ظلّت كتابات ياسين الحافظ الياس مرقص محظورة في أوساط الشيوعيين، حتّى أعيد لكاتبيها الاعتبار بقرار من المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي السوري الموحّد عام 1966. (هذه المعلومات مقتبسة من: جاد الكريم الجباعي، ياسين الحافظ معاصرًا: سيرة ذاتية وفكرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ديسمبر 2014، بتصرّف) 34

(17) طلال نعمة، حوارات غير منشورة، مصدر سابق، ص96-97.

(18) الياس مرقص، العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص11.

(19) طلال نعمة، حوارات غير منشورة، مصدر سابق.

(20) المصدر نفسه، ص82.

(21) الياس مرقص، المقاومة الفلسطينية والموقف الراهن، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، نيسان،1971.

الإسرائيلي لفلسطين هو امتداد للهيمنة الأميركية واستمرار لمشاريع الاستعمار الغربي لمنطقتنا العربية، «الصهيونية العالمية تكشف أنها أداة فعّالة ومتنوّعة في مخططات الإمبريالية الأميركية الرامية إلى الهيمنة على العالم»[22]. ومثل هذا المشروع العالمي الكولونيالي الهادف إلى تغيير هوية فلسطين وإزالتها لإبدالها بكيان مصطنع، خطير ويستدعي بالمقابل مقاومة شرسة وثابتة تتصدّى له، ويقول مرقص في هذا السياق: «إنّ عمق واتّساع وعنف وثبات الكفاح الفلسطيني قد قرّرته طبيعة الغزو الصهيوني الاستيطاني الرامي إلى إزالة الوجود الفلسطيني»[23]. والمقاومة الفلسطينية لا تقل أهميةً وشأنًا وقيمةً عن شبيهاتها التي تخوضها الأمم الأخرى كتلك المجابهة للفاشيات، أو ملحمة الشعب الفيتنامي، وهي شرعية تمامًا كما نضال الشعب الجزائري وتصدّيه للاستعمار الفرنسي، «إن الكفاح التاريخي للشعب الفلسطيني العربي، واحد من أهم كفاحات الدفاع الشعبي الوطني والقومي في العالم المعاصر، إلى جانب كفاحات الأمم الأوروبية ضد الغزو النازي والاحتلال الألماني... والكفاح الثوري لشعب الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي»[24].

لكن ارتقاء المقاومة الفلسطينية إلى مصاف المقاومات العالمية، وتأمين شروط استمرارها من خلال العمل على تمنيعها، لا يتحقق فقط من كون هذه القضية محقة، أو من التسويغات الشرعية المنبثقة من البعد الكولونيالي الاحتلالي التوسّعي للعدو الصهيوني فحسب، وإنما يقع على عاتق الثورة الفلسطينية أن ترتّب بيتها الداخلي، وأن تتأهّب دائمًا لمنازلة وازنة، لا يصيبها العرج الذي يمكن أن يجهضها أو يؤخرها أو يثبط عزيمتها. فالمقاومة لا تستقيم بالعمل المسلّح وحده، ولا تستوي وتستمر إذا هي غذّت الجانب العسكري، وأهملت الوعي بأنّ احتلال فلسطين ونكبتها هي قضية عربية المنشأ والهويّة في الجغرافيا والسياسة والأرض، وبأنّ الشعب الفلسطيني ذو هويّة عربية في ثقافته وانتمائه ولغته وتاريخه. من هنا ولكي تطّلع المقاومة الفلسطينية بدورها التحريري والنضالي لا بدّ أن تخضع أداءها الذي راكمته للنقد والمراجعة والمساءلة، وإحدى منازل النقد المحبّبة لدى مرقص هي المصطلحات كما أشرنا. فمصطلح الثورة سيّال مفتوح على الواقع، متحرّك ومتحوّل، والأهم أنه لا يمكن الالتفاف عليه وأقنمته من خلال إسقاط مفاهيم عليه لا تندمج مع السياق العربي، ولا تجاري خصوصية فلسطين العربية، فهو يقول: «كلا لا نرفض مصطلح الثورة الفلسطينية. ولكننا لا نؤقنمه، لا نؤلهه، ولا نردده على الطالع والنازل. ونحذر من منهج «يسحب» ثورات أخرى (فيتنام، جزائر...) على «الثورة» الفلسطينية، نحذر من منهج يستنبط، بصورة واعية أو ربع واعية أو غير واعية، طريق الثورة الفلسطينية من مفهوم «الثورة» العام... من جوهر الثورة الأفلاطوني... إنّ قيمة هذا المصطلح -»الثورة الفلسطينية»- تنحصر في كونه يؤكّد كيان فلسطين وشعب فلسطين وحق شعب فلسطين»... «إنّ هؤلاء المجمعين على الثورة الفلسطينية يقولون: «الثورة الفلسطينية»، (مع التشديد على الثورة). نحن نقول: «الثورة الفلسطينية»، (مع تشديد أشد على الفلسطينية)»[25]. يطلب مرقص إذن إلى حاملي لواء القضية المركزية العربية أن يحملوا سلاحًا ذا حدّين؛ من ناحية البندقية، ومن جانب آخر البقاء والمرابطة عند ساحة القتال الأساسية وهي الواقع الفلسطيني بكامل

(22) المصدر نفسه، ص15.
(23) المصدر نفسه، ص14.
(24) المصدر نفسه، ص13.
(25) المصدر نفسه، ص24-25.

حقيقيتـه ووقائعـه ومعطياتـه. لا يلـحّ مرقـص علـى النقـد مـن أجـل أن يقـوّض أو يهـدم أو ينسـف، وإنمـا بهـدف الوضـوح، لأن الوضـوح المفاهيمـي يولّـد الوضـوح الثـوري، ولتسـقط كل تلـك التشـدّقات التـي تنـادي بالتقسـيم، وبحـل الدولتيـن، «ففلسـطين كلّهـا عربيـة»[26]. ويغـور مرقـص عميقًـا فـي تاريـخ العروبـة العتيقـة المناضلـة، فهـو «مـع كل خـط المقاومـة الوطنيـة للغـزو، مـن عبـد القـادر الجزائري...إلـى سـلطان باشـا الأطـرش، والحركـة الوطنيـة الحديثـة وأحزابهـا (وصـولًا إلـى)... عبـد الناصـر أيديولوجيـة ومعرفيـة، عالميـة وسـلام، وانفتـاح وتحـرر»[27].

نحـن إذا أمـام مفكّـر حـذق، حـاد التفكيـر وجـذري القناعـات، بمعنـى أنّ جـذور خياراتـه الفكريـة متينـة ماكنـة منغرسـة فـي عقـل علـى أهبّـة النقـد دائمًـا، يطّلـع، يتعـرّف، يقـرأ، يعايـن، يفحـص، وهـو غيـر معنـي بالوصـول والاسـتكانة والتسـليم لقناعـات نهائيـة، ولا يكـرّر مصطلحـات مـن طريـق الاعتبـاط والتلقّـف، فتصحيـح المصطلـح يـؤدي إلـى تحديـد المفهـوم الـذي ينتـج عنـه وضـوح فـي الفكـرة، وسـويّة فـي الرؤية، وحسـن بصيـرة فـي مشـي درب التغييـر، لكـن كل هـذه المسـالك النظريـة لا تنتظـم وتكتمـل وتكمل سـدادها إلا فـي الإنصـات الكامـل للواقـع.

هـذه هـي الدعامـات الأساسـية لفكـر إلياس مرقـص، وهـي التـي تلاقـت وانجدلـت وتشـابكت لتشـكّل الهـمَّ الفكـري الـذي سـبكت نصوصـه، وشـكلت الانهمـام العـام لاشـتغاله النظـري، الماركسـي المـورد، عربـي الأفـق، إنسـاني الانفتـاح، كونـي المعانـي. ننتقـل الآن لنفكّـر مـع مرقـص فـي مصطلحـي العقلانيـة والواقـع.

ثالثًا: العقلانية من الفكر إلى الواقع

عنـد قـراءة نصـوص إليـاس مرقـص يلفتـك جلْـدَه لعشـوائية اسـتعمال اللغـة والمفـردات وصـولًا إلـى تضييـع معانـي المفاهيـم فـي متاهـات نظريـة جوفـاء. وتجويـف الفكـر هـو إفراغـه مـن مقدّراتـه وإمكانياتـه فـي التفسـير ومـن ثـمّ التغييـر بحسـب المقـول الماركسـي[28]. وإلحـاح مرقـص علـى ملاحقـة صوابيـة المفهـوم لتحديـده وتنقيتـه مـن عيـوب الاسـتخدام الطائـش والمتسـرّع هـو وضـع للعيانيـة الفكريـة علـى أول الـدرب الرصيـن والصائـب لترتكـز علـى مداميـك راسـخة وآمنـة. فالأنسـاق الفكريـة المحلّقـة لا تسـتهوي الفيلسـوف الـذي اسـتمدّ مـن ماركـس منهـج الجـدل الـذي هـو قـوام «العقـل السـليم».

ومحـك العقـل السـليم يتحـدَّد بمـدى توجهـه نحـو منـازل الواقـع بتاريخيتـه وشـخوصه المتعيّنـة، ومعايشـته الدائمـة والمسـتمرة بـه، ونفـاده إلـى «منطـق الأشـياء» كمـا هـي لا كمـا نشـتهي ونتـوق أو نفتـرض أن تكـون. فالكـون والوجـود والواقـع والأشـياء القائمـة فيـه هـي المرتكـز لتوليـد الفكـر والمعرفـة، مـن هنـا يرفـض مرقـص إنشـاء «الكـون الرأسـي»، وتشـييده الفكـري المنبتـر عـن الكـون الفعلـي أو الواقعـي، فهـو يقـول: «ثمّـة وجـود خـارج الـرأس، ويريـدون كـون الفكـر، وينشـئون مـن أجلـه كونًـا رأسـيًا»[29]. و«العقـل كلمـة يجـب أن تحيـل مباشـرة إلـى الواقـع والعالـم، إلـى هـذا المجمـوع الـذي هـو خـارج الـرأس، فثمّـة

(26) المصدر نفسه، ص17.
(27) إلياس مرقص، في نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص149.
(28) المصدر نفسه.
(29) المصدر نفسه، ص 115.

للعالـم عقـل، معقوليـة، عقالـة، ولذلـك فثمّـة للإنسـان عقـل»[30]. لـذا يلفـت مرقـص إلـى أن التفكّـر والتفكيـر والانفـكار والإفـكار والفكـر لا بـدّ أن تحضـر فـي الوجـود الـذي هـو أحـد تجليـات الواقـع، تلامسـه، تحايثـه، تقاربـه، تفعـل فيـه، تنفعـل بـه، فالعالـم يتطلّـب فكـرًا أمينًـا يعبّـر عنـه و«المفكـور» هـو الشـيء بواقعيتـه العينيـة المنغرسـة فـي تربـة واقعهـا، وليـس الشـيء مفهومًـا متصـوّرًا، «اقتـراب الفكـر إلـى الوجـود، والفـرق بيـن مفهـوم الشـيء (شـيء مـا)، وواقـع الشـيء...الفكر يسـتطيع أن ينشـئ صـورة أمينـة عـن العالـم». وأمانـة الفكـر هـي الواقعيـة أو صـورة الواقـع كمـا هـو منقولـة إلـى العقـل لتنتـج المعرفـة «معرفـة الواقـع»، والعلـم أي «علـم الواقـع»، والفلسـفة أو «التفلسـف الواقعـي»، «فالفكـر فـي المعرفـة يأتـي إلـى الواقـع»، و«المعرفـة هـي إعـادة إنتـاج الواقـع بالفكـر»، وعمليـة الفكـر واتجاهـه ووجهتـه وحركتـه تكـون صـوب الواقـع، و«الواقعيـة فـي رأس الإنسـان العيانـي والمفكـور، صـورة الواقـع الأخيـرة... هـي حاصـل بنـاء فكـري، نهايـة وغايـة عمليـة صعـود الفكـر إلـى الواقـع، الـذي هـو العالـم المـادي». ولأن مقدمـات بنـاء الفكـر النظـري تجـد ركائزهـا ودعائمهـا فـي الواقـع، لتنشـئ مداميكهـا علـى أرضـه الماديـة الموجـودة وغيـر المفترضـة، البعيـدة عمـا يسـمّيه مرقـص «الذاتويـة البشـرية لفـرد أو جماعـة» و«الإراديـة» و «هذيـان الهـدف»، فـإن الفكـر هـو ذو منحـى حركـي دينامـي متحـوّل مشـروط بتغيّـرات الواقـع وضروراته، «فمـا دام الـرأس يفعـل فعـلًا نظريًـا، فالفكـر فـي المعرفـة حركـة، حركـة الفكـر هـي انفـكار الحركـة»[31]. وهـذه الأخيـرة هـي سـمة العقـل ونتاجاتـه وقراءاتـه وتأويلاتـه للواقـع الـذي لا يصـحّ ابتسـاره فـي قوالـب جامـدة، وتجميـده فـي ماهيـات نهائيـة، وتخثيـره فـي جواهـر صامتـة واجمـة وخامـدة، بـل لا بـدّ مـن أن تُلحـظ فـي الواقـع سـيرورته وتحوّلاتـه واختلافاتـه، «إلا أنّ الطاغـي هـو الجوهـر والماهيـة والجامـد المـادي والجامـد الروحـي، وليـس بتاتًـا جـدل الاختلاف...وفكـرة العمليـة أو السـيرورة أو السـير البسـطي التحوّلـي processus»[32].

والجـدل Dialectique هـو أداة العقـل، وصلـة الوصـل بيـن الذهـن البشـري وعقـل العالـم، والناظـم لحركـة الفكـر، والموجـه لبوصلتـه نحـو الواقعيـة وأشـيائها ومنطقهـا، «الجـدل قائـم علـى مسـلّمة أوليـة؛ للعالـم عقـل، للواقـع منطـق، لذلـك يوجـد تاريـخ»[33]. واضـح اسـتمداد مرقـص مقولـة الجـدل كمنهـج وكطريقـة العقـل لمقاربـة الواقـع مـن ماركـس، وهـو يصـرّح بأخـذه عـن الماركسـية قائـلًا: «التوتـر الجدلـي بيـن الواقـع والفكـر هـو نقطـة الانطـلاق فـي الماركسـية، بـل فـي الديالكتيـك»[34]. ومـع توسـيط الجـدل بين عقـل العالـم وعقـل الإنسـان تتبلـور تجليـات الواقـع وظهوراتـه ويصيـر أكثـر تحديـدًا وتعيّنًـا، ونصيـر قادرين علـى تسـميته، التاريـخ، المجتمـع حيـث الوجـود الإنسـاني المنـدرج فـي الزمـان والمـكان، وحيـث يمـارس الإنسـان والبشـر نشـاطهم فتنضـح كينونتهـم مـن خـلال تفاعلهـم مـع بيئتهـم وفعلهـم فيهـا أو مـا يسـمّيه مرقـص «الكينونـة الاجتماعيـة» أو «المجتمـع كعمـل وتعامـل وعلاقـة وموصوليـة مـع العالـم والإنتـاج مـع جملـة العمـل والتعامـل، كينونـة حـرّة وصيـرورة»[35]. إن السـيرورة والصيـرورة الحاصلتـان ضـرورة لا بـدّ

(30) المصدر نفسه، ص 39.
(31) المصدر نفسه، ص121.
(32) في نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص146.
(33) المصدر نفسه، ص184.
(34) الماركسية والشرق، مصدر سابق، ص14.
(35) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص39.

منهـا، تجرفـان معهمـا حركـة الفكـر كمـا حركـة العالـم والوجـود. وهـذه الحركـة المضـادة للثبـات لا تتـلاءم مـع صنميـة المفاهيـم وجوهرانيتهـا بـل وتدحضهـا، «المجتمـع مفهـوم، هويـة وكينونـة تاريخيـة. المجتمـع ليـس مقولـة بديهيـة، التاريـخ أو التقـدّم، التقهقـر أو الركـود، تابـع لواقـع ومنطـق واقـع»[36]. وهنـا لا بـدّ مـن التنويـه بفـرادة مرقـص الـذي لـم يؤخـذ منسـاقًا وراء أنشـودة التقـدّم التـي تغنّـت بهـا الحداثـة الغربيـة، وافترضتهـا قاعـدة وقـدرًا. فمرقـص فيلسـوف يتنبّـه مـن الوقـوع فـي التناقـض المفاهيمـي أو الازدواجيـة المفاهيميـة، لأن مفهـوم الحركـة الـذي يلحظـه طبيعـة فـي جريـان الوجـود الإنسـاني، ليـس بالضـرورة أن يسـير بخطـوات إيجابيـة نحـو الأمـام، «فالتقـدّم خيـر مبدئـي، وهـذا لا يعنـي أنـه إلـه خيـر علينـا أن نعبـده، أن نركـن إليـه. هنـاك تقـدّم، وهنـاك تقـدّم إلـى الهاويـة»[37]. ويسـهب مرقـص مشـكّكًا فـي فكـرة التقدّميـة والسـخرية مـن «المدنيـة المزعومـة» فـي كتابـه «الماركسـية والشـرق»[38]. إنّ مـا يلـزم الفكـر بالحكـم علـى حركـة التاريـخ والمجتمعـات هـو واقعهـا كمـا هـو كائـن وليـس كمـا نتمنّـى أن يكـون.

وإن كان مرقـص يتمسّـك بالجـدل، فلأنـه الطريقـة المثلـى المنجيـة للعقـل مـن الانـزلاق نحـو خمـول المفاهيـم وتعطيلهـا كمـا يفعـل «المذهـب الجوهـري» الـذي يذهـب «ضـد المذهـب العقلـي». «ففكـرة الجوهـر... تشـوّه مبدئيًـا ونهائيًـا المعرفـة، ولا سـيّما المعرفـة التـي تريـد إرشـاد العمـل... مذهـب الجوهـر يلغـي هـذه المعرفـة»[39]. فالهـدف مـن انتهـاج العقـل إذًا لمنهـج الجـدل هـو اسـتقراء معرفـة طالعـة مـن الواقـع الاجتماعـي- التاريخـي، ونابتـة فيـه، ليـس بهـدف تطويقـه ضمـن فكـرة أو مفهـوم أو معرفـة أو علـم أو فلسـفة ذات منحـى نظـري تأويلـي وتفسـيري فحسـب، وإنمـا منـوط بهـذه الأشـكال الفكريـة أن تبتكـر أدوات إرشـادية للعمـل والفعـل فـي الواقـع مـن أجـل تغييـره. ولكـن انتقـاء المسـلك العقلـي الصائـب ليـس بالأمـر السـهل، بخاصـة عندمـا تكثـر الطرائـق الفكريـة والنمـاذج العقليـة والصيـغ العلميـة المتنطّحـة إلـى إبانـة حقيقـة الواقـع وجـلاء كيفيـة تكوّنـه، والإنصـات إلـى وقـع الحركـة فـي المجتمـع والتاريـخ. ولكـن ليـس كل مذهـب فكـري يزعـم أنـه يخاطـب الواقـع، فإنـه يصيـب منـه الصـدق والحقيقـة. ويـورد مرقـص فـي هـذا السـياق الوضعويـة أو الوضعانيـة positivisme التـي ابتهـج بهـا الفكـر الغربـي الحداثـي، وتوّجهـا خلاصـة المعـارف ونصّبهـا معيـارًا فصـلًا، ومحـكًّا قاطعًـا لإطـلاق الحكـم علـى تنويعـات المعـارف الكثيـرة، حتـى الماركسـية تشـبّهت بهـا واسـتعارت منهـا إهابتهـا بالماديـة كمعطـى فاصـل ويقينـي ودامـغ علـى اسـتقامة المعرفـة وصدقهـا، «الماديـة هـي شـرود الماركسـية وانحرافهـا صـوب العلمويـة[40]». لكـن الوضعويـة وكافـة التيـارات الماديـة والعلميـة ومنهـا الماركسـية بارتكازهـا علـى الماديـة أو الماديانيـة، بـدّدت العنصـر الأكثـر فعاليـة فـي الفكـر وهـو النقـد وطاقاتـه الخلاقـة التـي تبقـي العقـل نابضًـا حيًّـا متأهّبًـا. وهـذه الطاقـة هـي التناقـض والنفـي أو النفييـة والسـلب ونفـي النفـي، «العقـل يتضمّـن فكـرة النفـي السـلب، الجـدل هـو بحكـم التعريـف جـدل النفـي أو النفييـة، إذا بالتالـي وكنتائـج: بسـط، تقـدّم، نمـو، تحـوّل، تعاقـب، تجـاوز[41]». والفكـر عندمـا يضيّـع مقدرتـه علـى النفـي يـؤول إلـى أيديولوجيـا، لأنـه

(36) المصدر نفسه، ص93.
(37) المصدر نفسه، ص98.
(38) أنظر الماركسية والشرق، ص185.
(39) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص52.
(40) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص55.
(41) المصدر نفسه، ص46.

ينتهي إلى خلاصات باتّة نافذة ومسدودة أو منسدّة على النقد ومتعالية عليه. ويستهجن مرقص نكوص الماركسية إلى ما قبل النقد قائلا: «الماركسية... استغنت عن النفي فكرة وكلمة. لم تعِ وحدة المنطق والجدل... وتحت سلطات المادية... انتكست إلى ما قبل النقد... وتحوّلت هي بتمامها إلى أيديولوجيا... تحوّلت إلى وضعوية... وتصوّرت أن العلمية هي العقلانية المتقدّمة وأن الماركسية، بل الأيديولوجيا الماركسية الطبقية الثورية هي المعرفة العلمية»[42]. إذًا فإن كل عقل مستغنٍ عن الجدل الذي يؤمّن له مقدرة النفي هو عقل منتكس، شبه عقل، ولا بدّ من تخليص مفردة العقل من عشوائية الاستعمال، ومن كثرة شيوع التفاخر بامتلاكها، والتبجح بالمشي على دربها، فهي تارة الوعي وتارة الروح أو الوجدان، حتى أن البعض خلط بينها وبين الخيال، بينما بالنسبة إلى مرقص، «الجدل بحصر المعنى هو العقل مقيمًا الحدَّ على العقل السليم، ومتّهمًا دوغمائية الحس السليم والإدراك الحسي وملحقاته»[43]. فالجدل يزعزع يقينيات العقل العادي، ويضع العقل السليم على مشرحة النفي الناقض والمتجاوز للأحكام المسبقة، ليولّد عقلا سليمًا جديدًا يحمل هو الآخر قابلية الرفع والسلب وهكذا دواليك، «العقل السليم (مجموع الأحكام المسبقة) These، العقل بلا سليم Antithese ينقض ويطوّع ويحوّله إلى عقل سليم جديد Syntheseومتقدّم على العقل السليم السابق... فالجدل هو جهاد المعرفة أو هو المعرفة كجهاد»[44]. وكل الفتوحات المعرفية والعلمية والفلسفية هي «نقض للعقل السليم بالعقل»، ولكلّ منا عقله المستعدّ للتعثّر والسقوط في عقله السليم المشحون بالباطل الفكري، «الحزب الديني، الحزب الماركسي، الحزب القومي، الحزب الليبرالي... ليس فقط دوغمائية الأشياء هي أسس لهذه القاعدة العامة، بل العلوم نفسها تخلق هي أيضًا عقلها السليم الوثني. لا أحد منا بمعصوم من هذا الضلال...»[45].

رابعًا: مرقص؛ النفي ضد دوغمائيات المذاهب والأحزاب والأفكار والمفاهيم

بعد أن نفقه طريقة عمل العقل العاصم للفكر من الانحسار والضحالة والانزواء في أشكال صورية ناجزة من المذاهب والنظريات والاتجاهات والمدارس الفكرية، وبعد أن نبقي عقلنا على أهبّة النقد القادر على القفز عن المسلمات، والتشكيك بالثوابت أيًّا كان مصدرها، وبعد أن نتجهّز بالعدّة العقلية التي لا ترضى الركود والسكون، يصير هذا النهج النشط والمثابر بالنسبة إلى مرقص مشروعًا لتطبيقه على الدوغمائيات، والفلسفات والمشاريع الفكرية كافة التي تجمّدت في أيديولوجيات مكرورة وجوفاء، تفتقر إلى البعد الجدلي الذي يوثّق علاقتها بواقعها، ليس لتبرّره أو تسوّغه، أو لتحوّله إلى مادة للخيال المرتجى، بل لتنغرس فيه ولتنفذ إلى داخله، تستقرئه كما هو، ولتجتهد بعدها باحثة عن سبل تغييره انطلاقًا من خصوصيته وراهنه. وهكذا يطبّق مرقص هذا المبدأ الراسخ الذي التزم به فكرًا وممارسة، على قناعاته وتوجهاته الفكرية الماركسية والحزبية أولًا، فيبدأ بنفسه، ومن ثمّ على العقلانيات الكثيرة التي اطلع عليها، ولا سيّما العقلانية العربية، فينفر من تلك التي تؤول إلى صيرورات كاذبة وأهداف خائبة، لأنها قفزت عن الواقع وعُميت عن حقائقه بحجة أنها تتغيّا تحقيق

(42) المصدر نفسه، ص48.
(43) المصدر نفسه، ص40.
(44) المصدر نفسه، ص41-42.
(45) المصدر نفسه، ص42.

الأهـداف، فتغلّـب وهـي تمتطـي صهـوة التسـرّع وتتعجـل الوصـول، الهـدف علـى حسـاب الواقـع ومعطياتـه الموضوعيـة، «ثمّـة هـوّة بيـن الواقـع والهـدف... لا بـدّ مـن دراسـة الشـروط الموضوعيـة... متنقـلًا مـن الشـروط الموضوعيـة إلـى الجملـة الواقعيـة... المطلـوب معرفـة الواقـع، معرفتـه كجملـة حيّـة ككل متناقـض»[46]. فقـه التناقـض ضـروري لسـبر أغـوار الواقـع، للابتعـاد عـن التسـطيح والاختزاليـة والتجزيئيـة والتبسـيطية والذرائعيـة والتبريـر المغـرض والمضلـل للسـلطات بأشـكالها كافـة حتـى العلميـة منهـا.

كيـف طبّـق مرقـص هـذا النهـج مـن النقـد اليقـظ علـى قناعاتـه الفكريـة؟ وكيـف حاكـم مـن خلالـه العقلانيـة العربيـة؟ وكيـف تخلّـص عبـر حسّـه النقـدي المتبـرّم مـن الاطمئنـان الفكـري أو الدهشـة الآخـذة بلـب العقـل، مـن نـوازع التبعيـة والانقيـاد الفكرييـن نحـو الغـرب وحداثتـه؟

اعتـاش الفكـر المرقصـي علـى النقـد الـذي صـار عنـده بمنزلـة مقصلـة تترصّـد كيفيـة مقاربـة القضايـا الفكريـة والسياسـية والاجتماعيـة والقوميـة بخاصـة تلـك التـي راجـت وبـرزت فـي تلـك المرحلـة، أي الماركسـية والقوميـة. فلقـد بـدر عـن اعتنـاق مريـدي هـذه الأفـكار، ابتـذال فـي طريقـة فهمهـا وبالتالـي فـي صنـوف ممارسـتها، أودت بهـا إلـى اختزالهـا فـي ثنائيـات مثنويـة، «وثنيـة ومانويـة القامـوس»[47]، وشـوّهتها مـن خـلال جرّهـا إلـى اسـتعمالات شـيئية بعـد أن عطّلـت حيويـة مفاهيمهـا وأفرغتهـا مـن قابليتهـا للتفاعـل مـع أشـكال الواقـع العيانـي والمشـخص. فهـو يأخـذ مثـلًا علـى الماركسـيين تمسّـكهم بثنائيـة (بروليتـاري/ برجـوازي)، ويرفـض مقابلـة مفهومـي: الثـورة والتقـدم، وذلـك لأن تحويـل هـذه المفاهيـم إلـى مقاييـس اعتباريـة ومعاييـر ثابتـة للتفسـير والفعـل يفـوّت علـى الفكـرة فـي الذهـن الاسـتفادة مـن التوتـر الجدلـي مـع الواقـع والاغتنـاء منـه، لأن الأسـاس عنـد مرقـص هـو تكويـن الفكـرة فـي الذهـن، «ففـي الدنيـا يوجـد تكـوّن»، أي أن الأفـكار والمفاهيـم والنظريـات ليسـت خلاصـات ناجـزة ومقفلـة، بـل هـي منفتحـة علـى التكـوّن مـن خـلال مماحكتهـا لمنعرجـات الواقـع فـي أشـكاله التـي لا حصـر لهـا. فمـدى صوابيـة الفكـرة مرتهـن لصلاتهـا بالواقـع، وهـذه العلائقيـة (واقع/ فكـرة) هـي المنظـار الـذي علـى أساسـه «ينبغـي إعـادة النظـر، ومراجعـة كل التجربـة (الماركسـية) منـذ مـا قبـل الثـورة، ومنـذ ماركـس وحركـة العمـال، كان ينبغـي اسـتئناف عمليـة اكتشـاف الواقـع»[48].

وفـي كتابـه «الماركسـية والشـرق»، يعـرض مرقـص لأزمـة الماركسـية فـي نسـختها العربيـة، ويصفهـا بالمدرسـية والدعائيـة والصوريـة الشـكلية، لأنهـا لـم تُعـنَ بـردم الهـوّة بيـن الواقـع والفكـر، فهـو يقـول: «إنّ الواقـع العملـي خطّـأ الفكـر النظـري فـي نقـاط عديـدة، وليسـت دومًـا ثانويـة. ولا يمكـن أن تسـير الأمـور علـى نحـو آخـر. لا يمكـن أن يأتـي الواقـع العملـي مصداقًـا لـكل مـا جـاء فـي الفكـر النظـري. ولأننـا نسـينا ذلـك فقـد زاد التناقـض بيـن الواقـع والفكـر، وحـدث تباعـد بيـن العمـل والنظـر. تحوّلـت الماركسـية مـن نظريـة الممارسـة الإنسـانية إلـى لاهـوت عاجـز، تحوّلـت مـن حافـز للبحـث والعمـل إلـى عائـق... وفـي البـلاد العربيـة بلـغ الانحـلال الذرائعـي والمدرسـي والدعائـي الـذي أصـاب الماركسـية، درجـة لـم يبلغهـا فـي أي مـكان آخـر مـن العالـم»[49].

(46) المصدر نفسه، ص180-179.
(47) نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص85.
(48) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص154.
(49) الماركسية والشرق، مصدر سابق، ص10.

لـم يفقـه الماركسـي العربـي الماركسـية كعـدّة نقديـة ثوريـة، ولـم يسـتزد مـن جهازهـا المفاهيمـي القـادر علـى إمـداده بـرؤى وأدوات نظريـة وعمليـة يتوجـه بهـا إلـى واقعـه وبيئتـه الاجتماعيـة والتاريخيـة. بـل اجتـر الماركسـي العربـي مصطلحـات الماركسـية ومفرداتهـا، وردَّدهـا كأمثولـة مطلوبـة منـه للحفـظ والاجتـرار والتكـرار، وأحيانًـا للتبجـح اللفظـي. هـذا الأخـذ الأعمـى المنقـاد بالانتمـاء العقائـدي، والتبعيـة الأيديولوجيـة منـع الماركسـي مـن إجـراء فحـص نقـدي للماركسـية غيـر المنزهـة عـن الأخطـاء والـزلات والتعثـرات والشـطحات والنواقـص، فيصيـر إذاك ماركـس إلهـا، يتمتـم المؤمـن بـه والمنضـوي فـي ديـن الماركسـية تعاويذهـا وتمائمهـا، ويلهـج لسـانه بمفرداتهـا كأقانيـم لا يمكـن المسّ بهـا. ويـورد مرقـص فـي هـذا السـياق: «إن مصيبـة الماركسـية مـع الماركسـي الـذي قـرأ مؤلفـات ماركـس وأنجلـز ولينيـن ولـم يجـد خطـأ فيهـا، مصيبـة فادحـة، وأفـدح منهـا مصيبـة الماركسـية مـع الماركسـي الـذي يؤمـن بصـورة قبليـة بـألَّا إمكانيـة للخطـأ فـي مؤلفـات ماركـس وأنجلـز ولينيـن. يريـدون أن يجعلـوا مـن ماركـس وأنجلـز ولينيـن آلهـة»[50]. إن التلقـف الاجتـراري لنصـوص هـؤلاء الفلاسـفة، وإعـادة صياغتهـا وتوليدهـا وتهجينهـا فـي كتـب تنسـخها نسـخًا، بحيـث لا تبـذل الجهـود الفكريـة التنظيريـة لمقاربتهـا وفقًـا للواقـع العربـي ببعديـه التاريخـي الاجتماعـي، «يجعلنـا نشـك فـي أن فوائـد هـذه الكتـب ذات الطابـع المدرسـي الشـعبي، تفـوق أضرارهـا... بينمـا يقـوم فريـق مـن الماركسـيين الجـدد بنقـل أحـدث مكتشـفات الفكر الماركسـي المسـتقل، وهـم وقرّاؤهـم يجهلـون كلاسـيكيات الماركسـية...»[51]. وكمـا أنّ مرقـص يوجـه سـهام نقـده لمـن لا يُبيّـئ الماركسـية، ويهيّـئ لهـا أرضًـا لاحتضانهـا وتوطينهـا مـن خـلال الحراثـة التنظيريـة الجدّيـة والموضوعيـة المسـتندة إلـى تربـة الواقـع، كذلـك فهـو لا يقبـل قـول مـن يـورد حججـه عـن عـدم ملاءمـة الماركسـية لعالـم الشـرق، كونهـا «بنـت الغـرب»، «فالماركسـية بنـت الغـرب، تلـك حقيقـة بديهيـة، والماركسـية بنـت الغـرب وصلـت إلـى الشـرق وتفاعلـت معـه وباتـت تحـرك الشـرق وتحـرك العالـم أجمـع»[52]. فالماركسـية هـي حتمًـا وحسـمًا «نظريـة التطـور والمتطـورة أبـدًا» وهـي «نظريـة الممارسـة الإنسـانية الثوريـة»، لـذا فهـي صالحـة لـكل زمـان ومـكان، ولـكل شـعب ومجتمـع، فقـط علينـا أن نحسـن اسـتيرادها وأن نبتكـر معهـا تعاطيًـا جدليًـا مفتوحًـا علـى حسـن الاسـتخدام وصوابيـة التوظيـف مـن خـلال الاعتمـاد علـى مـا تفـرزه الممارسـة لأنهـا بنـت الواقـع والمحتكّـة معـه والملتصقـة بـه، «إن الممارسـة مصـدر النظريـة ومادتهـا، ومحكّهـا ومعيارهـا، وغايتهـا ومآلهـا، هـي ممارسـة الشـرق وممارسـة العالـم أجمـع». لـذا «علينـا أن نسـعى إلـى عـرض الماركسـية ككل إلـى اسـتيعاب جوهرهـا ومنهجهـا وآليـة عملهـا ونظريتهـا العامـة»[53]. وحـده الجـدل يمكـن أن يكـون مرشـدًا للعمليـن النظـري الفكـري، والثـوري التغييـري العملـي، لأنـه يدلّنـا علـى كيفيـة قـراءة الماركسـية فـي ضـوء أسـئلة الحاضـر العربـي.

وإذ يعتـرض مرقـص علـى مثنويـة المفاهيـم الماركسـية، فإنَّـه يدحـض كل فكـر يحـدّ حركتـه بيـن الثنائيـات ويجعلهـا عالقـة بيـن تجاذباتهـا، ويشـهر احتجاجـه علـى «مانويـة ومثنويـة القواميـس البشـرية، حيـث تبقـى فكـرة العقـل مخصيـة»[54]. وهـو ينهـمّ بخصـاء العقلانيـة العربيـة المتأرجحـة بيـن ثنائيـات:

(50) المصدر نفسه، ص13.
(51) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص22.
(52) المصدر نفسه، ص18.
(53) المصدر نفسه، ص17-19.
(54) المصدر نفسه، ص55.

غرب/ شـرق، أصالة/ معاصـرة، ماضـي/ حاضـر، تحديـث، حداثة/ تقليـد، انحطاط/ تقـدّم، ركود/ نهـوض. ويقـول مرقـص ناقـدًا تقييـد العقـل العربـي إلـى هـذه الثنائيـات: «قبـل مـدّة غيـر طويلـة، كنـا مـع فكـرة الركـود والنهـوض، مـع مقولـة الانحطـاط والتقـدّم بحجـة أن هـذه الثنائيـات فيهـا تبسـيط، وهـي كذلـك قطعًـا، لـذا انقلـب كثيـرون عليهـا. بـدلًا مـن أن يفحصـوا الكلمـات والواقـع... مـن تبسـيط إلـى تبسـيط، مـن تسـرّع إلـى تسـرّع، مـن الفكـر الماركسـي والقومـي إلـى الفكـر الدينـي... مـن ادّعـاء إلـى ادّعـاء. لا فكـر، إنّ عيـب الفتـرة السـابقة كان مـن بيـن جملـة أمـور اكتفاءهـا بمقـولات عامّـة شـبه لفظيـة...»[55]. فكيـف أخضع مرقـص العقلانيـات العربيـة المجمّـدة منـذ عصـر النهضـة فـي مثنويـة التقليـد والحداثـة، لمطحنتـه النقديـة التـي لا تسـتكين والتـي لا تنـي تجـرش كل مـا تصادفـه فـي طريقهـا؟

خامسًا: العقلانية العربية؛ انفصام بين الفكر والواقع

خيـر بدايـة نسـتهلّ فيهـا التنـاول النقـدي المرقصـي للتفكّـر العربـي الحديـث والمعاصـر هـو المسـاءلة الجذريـة، «هـل الفكـر العربـي فكـر؟». فقبـل أن يسـتنطق الفيلسـوف السـوري ذو الهويـات المتعـدّدة واللامتحـددة، الواقـع العربـي المطمـوس والمُـوارى تحـت ثنائيـات الأيديولوجيتيـن «الماركسـية التجريديـة الإقليميـة، والأيديولوجيـا القوميـة الفارغـة والعاجـزة عـن تحقيـق أهدافهـا»، يجـذّر مرقـص نقـده ليلامـس قـاع العقـل العربـي وليصـدّع بنيتـه المنعطبـة المشـلولة عـن الحركـة، والمغلولـة إلـى منطـق الفقـه، «هـل الفكـر العربـي فكـر؟ هـو فقـه؛ فقـه قومـي فقـه ماركسـي فقـه ثـوري... مسـيّس دومًـا... الفقـه يتصـوّر أنـه هـو الفكـر. الفقـه قوامـه: مبـادئ، تطبيقـات، أصـول، فـروع...»[56]. الفقـه لا يبتكـر، لا ينشـط، لا ينفـي ويتجـاوز بـل يتحجّـر، لا يحاجـج بـل يكفّـر، لا يصغـي للواقـع بـل يتعلّـق بالصنميـة مهمـا كان شـكل تجسّـدها وتمظهرهـا، لا يصعـد ويهبـط ويتوتـر وينفعـل، بـل يمشـي فـي خـط ثابـت دوغمائـي لا يحيـد عنـه. ولأنـه فكـر متصلّـب يفتقـر إلـى الديناميـة، فهـو لا يسـلك مسـالك الابتـكار التـي تعـود عليـه بفائـدة التجديـد، وعلـى الواقـع بجـودة القـراءة، لاسـتجلاء صـدق مفاهيمـه التـي مـن شـأنها أن «تعكـس الخصائص والملامـح العامـة للعالـم المـادي». مـن هنـا أهميـة التأسـيس وتغليبـه علـى التحديـث. الفكـر العربـي غيـر مؤسـس علـى أعمـدة تغرسـه فـي واقعـه، ولا يملـك جـذورًا تصيـر نبتـات تتغـذّى مـن تربـة حاضـره وراهنه، المجبولـة بتاريـخ مشـبع بخصوصيـة اللغـة والتـراث والثقافـة والديـن والخصائـص بعامـة. وقبـل تهافـت المفكريـن العـرب علـى هـذا أو ذاك مـن المشـارب الفلسـفية والمنابـع الحضاريـة، عليهـم أن يأسسـوا لعقـل عربـي جدلـي، يعمـل كمصفـاة تنقّـي وتختـار وتصطفـي وتقبـل وترفـض، وتتقـن جدليـة الانفتـاح والانغـلاق بحسـب مـا يتـواءم مـع نسـيج واقعهـا، وبحسـب مـا تقـوّي علائـق صلاتهـا بمجتمعهـا وبمشـكلاته.

وربمـا يفاجئنـا الموقـف النقـدي المرقصـي مـن الحداثـة الغربيـة، وهـو الـذي سـافر إلـى أوروبـا ونهـل مـن علومهـا، وأجـاد لغاتهـا، وعـبّ مـن ثقافتهـا، وتخصـص فـي معارفهـا، وتبنّـى أكبـر فلسـفاتها وأفكارهـا. وعلـى الرغـم مـن إعجابـه بالعلـم والفلسـفة الغربييـن، فهـو يصـرّح قائـلا: «أنـا لسـت من حـزب العلميـة، بل مـن حـزب الحقيقـة، لسـت مـن حـزب السـوربون والحداثـة المعاصـرة، بـل مـن حـزب الكلاسـيك ومـن

(55) الصدر نفسه، ص155.

(56) المصدر نفسه، ص14.

حزب التأسيس»[57]. وفي الوقت عينه يبدي مرقص إعجابه بذخائر التراث العربي الذي يشتمل على مقوّمات وعناصر وأصول وبذور يمكن سقايتها لتنمية غرسات القومية العربية، التي علينا أن نجتهد في ابتكار منهج لبلورتها وصقلها وإعادة بنائها بهدف تأصيلها، للحفاظ على أصالتها، ولإنقاذها من ثقافة الأصولية الماضوية المنتكسة إلى عهد بائد مناف لمنطق التاريخ وهو يحذّر من الأصولية التي تضعنا رهائن الماضي وتطمس الحاضر: «لسوء الحظ في حالتنا الحاضرة، كلمة أصولي هي أيضًا ضيّعت المعنى! صارت شدًّا ماديًا نحو ماضٍ مستحيل»[58]. وردًّا على المنكرين على العرب تراثهم وإرثهم يذكر مرقص: «العرب كان عندهم لغةً أدبية قومية، أنشأوا علومها، ربّما أعظم بناء من نوعه في تاريخ الحضارات الكبرى جميعًا»[59]. وهو إذ يشيد باللغة العربية كحاضنة لإبداعات العرب، وناقلة لموروثهم الحضاري، وحافظة لنتاجهم العلمي والمعرفي، ولكنّه يحذّر من الانجراف صوب تقديسها، لأن التقديس يضيّق الخناق عليها، يمذهبها، «هي قومية؟ هي إسلامية؟ ما مبرّراتكم؟ ما براهينكم؟ من دين، من علم من عروبة، من ماذا؟ من جاهلية، من وثنية، من عجز، من تعويض؟»، إضفاء بعد عنصري على اللغة يحدّ من انفتاحاتها، يغلق دونها نوافذ الاستزادة والتطوّر، يلغي عنها صفة الكونية التي تتمتّع بها كل لغة، «فلغات آدم متساوية في الحق. هذا مستوى أساسي. الأكثر أساسية لغة قوم مع بيئة مناسبة لهذا القوم، والبيئة هي الجغراتاريخية، المجتمع، العيش، وإنتاج العيش»... لذا فإنّ الفكر العربي عن اللغة يحتاج إلى أمور عديدة: الوعي الفلسفي، الوعي التاريخي، الوعي الألسني»[60]. يولي مرقص الاهتمام للغة أوّلًا لأن الفكرة بالنسبة إليه تبدأ بالكلمة، والمفهوم يتوضّح بلغته، فالاتجاه دائمًا يكون من»الكلمات إلى المفاهيم، من اللغة إلى الفكر... اللغة وسيط بين الفكر والواقع». و«الوعي الزائف هو انحطاط اللغة وجمودها»[61]. ينفرد مرقص هنا بسعة أفق تفكيره، ورحابة نظرته التي من خلالها يقيّم الثقافات والديانات من ضمن نطاقها الخاص، وبحسب مضامينها وخصوصيتها، وليس مقارنة بثقافة أو حضارة أخرى كما تفعل الحضارة الغربية التي تصنّف ثقافات الآخرين وتعليها أو تبخسها حقّها، تحقّرها أو ترفعها، تنبذها أو تقرّبها بحسب نموذجها الخاص الذي تفترضه الأعلى والأكثر تطوّرًا وتقدّمًا، والذي يجب ان تلحق به وتتبعه الشعوب الأخرى.

وفي سياق نقده الحضارة الغربية، ينبّه مرقص إلى أنّه يجب أن ننظر إلى الغرب من خلال نظرة شاملة كلية، تلمّ بالجوانب كافة فلا تقتصر نظرتنا إليه على جزئية واحدة وهي الحداثة بنتاجاتها العلمية والفلسفية. ولا يغيب عن ابن سوريا المحتلّة من قبل فرنسا في مرحلة عايشها مرقص، الوجه الاستعماري للغرب الأوروبي. ويلحظ الماركسي العروبي العلاقة الوطيدة بين الوظيفة الاستعمارية التوسّعية للغرب، وتعاظم الرأسمالية، فهو يقول: «الوجه الآخر لفتوحات الغرب الأوروبي، الترابط بين صعود الرأسمالية والتوسع الاستعماري في العالم، الوجه الآخر للحداثة أي الاستعمار والتوسّع الرأسمالي». وهو يشير متعمّقًا في طبيعة النظام الرأسمالي المتغوّل والذي لا يعرف حدودًا، بل

(57) المصدر نفسه، ص109.

(58) نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص87.

(59) المصدر نفسه، ص27.

(60) نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص-142 145.

(61) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص 28.

ينتشـر ويتمـدد ويستشـري «ليـس فـي أوروبـا وحدهـا كنظـام أوروبـي صـرف، بـل هـي تتولّـد وتنمـو فـي العالـم ومـن العالـم كنظـام عالمـي... والوليـد الرأسـمالي ينمـو يوميًـا مـن المتروبـولات والمسـتعمرات، إنّ الرأسـمالية الأوروبيـة هـي نظـام عالمـي»[62]. مـن هنـا يدعـو مرقـص المفكريـن العـرب المأخوذيـن ببريـق الحداثـة الغربيـة، إلـى اعتبـار الاسـتعمار والتوسّـع الإمبرياليين كأحـد أهـم مسـببات التأثيـرات السـلبية التـي يلحقهـا الغـرب بعالمنـا العربـي. وهـو يطعـن مـن بـاب هـذه الانعكاسـات المدمّـرة لحـروب الغـرب التوسّـعية ضـد عالمنـا الشـرقي- العربـي، بثيمـة التقـدّم التـي يحمـل لواءهـا كعقيـدة يتولّـى نشـرها وفرضهـا علـى بقيـة الأمـم الأخـرى، ويقيـم باسـمها حروبـه وفتوحاتـه وتوسّـعاته، «القـرن العشـرون يشـهد حربيـن عالميتيـن مـع جرائـم كبيـرة وأزمـات متنوّعـة... التقـدّم يوضـع فـي السـؤال والطعـن. هـذا حقّـه واسـتحقاقه... لا يوجـد تقـدّم، التقـدّم أكذوبـة أيديولوجيـة»[63].

وإن كانـت الويـلات التـي جرّتهـا حـروب أوروبـا الداخليـة والخارجيـة، تضـع الحداثـة الغربيـة موضـع التشـكيك وإعـادة المراجعـة، فإنـه بالنسـبة إلـى مرقـص، حتّـى النتـاج الحداثـي الغربـي الفلسـفي والفكـري ليـس موضـع إعجـاب بتاتًـا، بقـدر مـا يخضـع كغيـره للنقـد الهـادف إلـى التأسـيس. وهـو يكتـب منتقـدًا التيـار التغريبـي الـذي لهـث للحـاق بأوروبـا فيقـول: «... إذ يتصـوّر جميعهـم أن مصيبتنـا تكمـن فـي أننـا لـم نلحـق بأوروبـا. أنـا لا أريـد أن ألحـق بأوروبـا، أريـد أن أقيـم الأساسـات وأعمّقهـا فحسـب. أنتـم تركضـون وراء ميشـيل فوكـو وجـاك دريـدا، أي أنكـم تركضـون وراء ورقـة غصـن الشـجرة، أنـا أريـد الشـجرة وأريـد الأرض وتهمّنـي الجـذور، وتهمّنـي الشـجرة كلّهـا وليـس أغصانهـا وحدهـا»[64].

لا ينتصـر مرقـص لأحـد مـن الفريقيـن الـذي يزيـد انقسـامهما وتموضعهمـا علـى طرفـي نقيـض الهـوّة المتسـعة أو البـون الشاسـع، المسـبّبين لشـرخ بنيـوي فـي العقلانيـة العربيـة ككل. هـذان الفريقـان هما»الإسـلاميين الميراثييـن وفريـق العقلانييـن التقدمييـن، الثورييـن، العلمانييـن، العلمورييـن»[65]. فالفريـق الأول «لـم يصـفّ حسـابه مـع الماضـي» و«القاتـل الأكبـر هـو الماضـي» و«حيـث التحـوّل نحـو أشـباح الماضـي هـو حكايـة قبيحـة وقاتلـة»[66]. والفريـق الثانـي يتغنّـى بمفـردات: الثـورة والليبراليـة والديمقراطيـة والتقـدّم والعلمانيـة، دون أن يؤمّـن لهـا أرضيـة جماهيريـة واقعيـة فـي مجتمعاتنـا، «المثقـف العربـي... يريـد ديمقراطيـة مـن دون قاعـدة جماهيريـة... الليبرالـي العربـي يمكـن أن يتحـوّل إلـى مـا يشـبه الفاشيسـتي علـى قاعـدة النخبويـة ذاتهـا... انشـطار الوعـي العربـي وانشـطار المجتمـع العربي إلـى اثنيـن؛ تقليد وحديـث»[67].

يدعـو مرقـص إلـى الابتعـاد عـن منطـق التحيّـز لفكـر مـا، وإلـى عـدم التخنـدق فـي مذهـب فلسـفي مـا، وإلـى التقصّـي فـي كل فكـر عـن بعـده الكونـي والإنسـاني والكوكبـي والعالمـي. «فالفكـر عالمـي، ينتمـي إلـى الإنسـان ككلّـي مجـرد وكعالـم وأمـم. الفكـر؛ الليبرالـي، القومـي، الماركسـي... الإسـلامي فـي جوهره عربـي وغيـر عربـي، ولا يمكـن فهمـه مـن دون العالـم... الفكـر الإسـلامي عالمـي، وليـس حكـرًا علـى

(62) الماركسية والشرق، مصدر سابق، ص184-186.
(63) نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص89.
(64) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص45.
(65) نقد العقلانية العربية، مصدر سابق، ص349.
(66) المصدر نفسه، ص99.
(67) العقلانية والتقدّم، مصدر سابق، ص11.

العـرب...»[68].

لا يحـرّض مرقـص المنتميـن إلـى أيّ مـن الفريقيـن علـى أن يتـرك قناعاتـه ويسـتبدلها، أو أن يغيّـر تموضعه الفكـري والنظـري، ولكنّـه يلفـت إلـى ضـرورة اعتمـاد مناظيـر فكريـة لحيـازة القناعـات، مسـتندة إلـى النقـد وليـس إلـى الاعتنـاق العشـوائي والاعتباطـي. فـلا ضيـر بـأيِّ فكـرة نضعهـا فـي عالمنـا الرأسـي، شـرط أن نغربلهـا ونشـرّحها ونتعمّـق فيهـا قبـل إدخالهـا إلـى ذهننـا كقناعـة مـا. والشـرط الآخـر هـو أن نسـأل دائمًـا عـن مـدى اتصالهـا بالواقـع، وكيـف ستسـاعدنا فـي فهـم راهننـا مـن دون أن نقفـز عنـه، فننتهـي إلـى هوامـات فكريـة ونظريـة لا قيمـة فعليـة لهـا ولا ترشـدنا إلـى تحسـين مجتمعنـا، كمـا أنـه يجـب دائمًـا أن نربـط النظريـة بالممارسـة الثوريـة الاجتماعيـة، وألا ننبتـر عـن سـياقنا الثقافـي المشـدود إلـى تاريـخ، شـئنا أم أبينـا ممهـور بثقافـة وتـراث خاصّيـن.

خاتمة

قليلـون ربّمـا مـن يقـدرون علـى البقـاء فـي منطقـة الخطـر فـي عالـم الفكـر، والخطـر نابـع مـن عـدم الركـون والنفـور مـن الاطمئنـان، والبقـاء فـي وضعيـة متعبـة للـرأس ولكنهـا تـؤدي بـه إلـى الطريـق المنجيـة لـه مـن صـدأ الاعتنـاق العقائـدي الدوغمائـي، «حيـث يفتـرض الصفـر كمنطلـق، أي التجـرّد والأمّيـة الروحيـة، الصحيفـة البيضـاء العقلانيـة، وذلـك ضـد المباشـرة بالقبـض علـى حـدّ مـن الحـدود ثـمّ الركـوع لهـذا الحـد الـذي يتضخّـم ويسـتطلق أي يصيـر مطلقًـا»[69]. إنّ المطلقـات الفكريـة هـي القاضيـة علـى أيِّ عقلانيـة تختـار أن تقعـد مدحـورة مذمومـة بيـن أسـيجة الماضـي المشـتهى والمنتظـر، حيـث العـودة إليـه خـلاص، أو أن ترهـن نفسـها إلـى عقلانيـة غريبـة عنهـا، لا تحصـل منهـا سـوى علـى إيقـاع لفظـي فـارغ مـن مضمونـه. بينمـا العقلانيـة المرتجـاة هـي التـي تتـكاون أي تؤسـس نفسـها علـى التكـوّن اللحظـي المنشـد إلـى الواقـع، والتكـوّن هـو تشـكّل الفكـرة وتبرعمهـا ونموّهـا وترعرعهـا فـي بيئـة مناسـبة ومؤاتيـة، فتصيـر إذّاك ممهّـدة للتغييـر المنشـود. وإحـدى لحظـات التكـوّن وانبنـاء الفكـرة وتأسيسـها تتركّـز فـي حذاقـة اسـتعمال اللغـة وتخيّـر الكلمـات. لـذا لا ينـي مرقـص يحـذّر «مـن تصنيـم الكلمـات وتأليههـا... الحـذر مـن التصنيـم... يجـب إقامـة الحـد علـى الكلمـات»[70].

ممتعـة هـي مجـاراة مرقـص فـي سـباحته الفكريـة العميقـة والمتقنـة. تتعلّـم منـه كيـف تبقـي ذهنـك قيـد السـؤال المفتـوح دائمًـا علـى الانفجـار فـي وجـه الدوغمائيـات الفكريـة التـي يسـقط فيهـا الفكـر العلمـوي كمـا الدينـي. لا مشـكلة إن لـم تقتنـع، فمحاولـة الوصـول حتـى وإن طالـت أفضـل مـن الوصـول حيـث اسـتكانة الفكـر وتعثّـره بمـا وصـل إليـه، وانتهائـه فـي قوقعـة قاتمـة ومظلمـة. جميـل أن تبقـى مرتبطًـا بخيـط الماضـي شـرط ألا تلفّـه حـول رقبتـك فتمـوت فـي غابـر السـلف، بينمـا مطلـوب منـك أن تلتقـط خيـط الماضـي لترسّـخ قدمـك فـي الحاضـر وفـي واقعـك وليـس فـي واقـع هجيـن غريـب. جميـل أن تعشـق لغتـك، أن تنضـح شـغفًا بهـا يجعلـك فـي حالـة بحـث دائمـة عـن أصـول كلماتهـا، فتصيـر مطواعـة لديـك كمـادة قابلـة للاشـتقاق والنحـت والابتـكار. حـبّ اللغـة العربيـة، ليـس مـن حيـث كونهـا أداة الشـعراء

(68) المصدر نفسه، ص17-18.

(69) المصدر نفسه، ص180.

(70) المصدر نفسه، ص17.

فحسـب، فهـي تسـتطيع أن تشـكّل نـواة بنـاء فلسـفة عربيـة يقظـة، تربـط دائمًـا مـا بيـن مفرداتهـا وواقـع الإنسـان العربـي، الـذي لا بـدّ أن يجـد يومًـا مـا مفرداتـه الضالـة التـي تقـوده إلـى مفاهيـم- مفاتيـح يفقـه بهـا واقعـه، تمهيـدًا إلـى تغييـره نحـو الحريـة والعدالـة.

المراجع: مؤلفات الياس مرقص

1- الماركسية والمسألة القومية، دار الطليعة، بيروت، 1970.
2- تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي، دار الطليعة، بيروت، 1964.
3- الماركسية في عصرنا، دار الطليعة، بيروت، 1965.
4- العقلانية والتقدم، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ط1، 1992.
5- الماركسية والشرق، دار الطليعة، بيروت، 1968.
6- نقد الفكر القومي عند ساطع الحصري، دار الطليعة، بيروت، 1966.
7- نقد العقلانية العربية، دار الحصاد، دمشق، 1997.
8- المذهب الجدلي والمذهب الوضعي، نشر بعد وفاته عام 1991، ولم يذكر مكان النشر أو دار النشر.
9- المقاومة الفلسطينية والموقف الراهن، دار الحقيقة، بيروت، 1971.
10 - في الأمة والمسألة القومية، دار الحقيقة، بيروت، 1971.
11- الماركسية السوفياتية والقضايا العربية المعاصرة، دار الحقيقة، بيروت، 1973.
12 - الماركسية اللينينية والتطور العالمي والعربي، دار الحقيقة، بيروت، 1970.
13 - نقد الفكر المقاوم؛ عفوية نظرية في العمل الفدائي، دار الحقيقة، بيروت، 1970.
14 - طلال نعمة، إلياس مرقص؛ حوارات غير منشورة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013.
15 - نظرية الحزب عند لينين والموقف العربي الراهن، دار الحقيقة، بيروت، 1970.
16 - جاد الكريم الجباعي، حوار العمر، أحاديث مع إلياس مرقص، دار حوران، دمشق، 1999.
17 - موضوعات إلى مؤتمر اشتراكي عربي، دار دمشق، دمشق، 1963.
18 - الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر، دار الطليعة، بيروت، 1959.
19 - صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، مع محمد علي الزرق، دار الدراسات العربية، بيروت، 1960.
20 - في الفكر السياسي (مع ياسين الحافظ وجمال الأتاسي وعبد الكريم زهور) وهو في جزءين، وله فيه مقالة بعنوان «الستالينية والمسألة القومية، بالإضافة إلى مقالة أخرى معنونة بـ«حول تداعي النظام البرلماني»، دار دمشق، دمشق، 1963.

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
أمل حويجة
أمل فارس
بينت شيلر
جبر الشوفي
جمال الشوفي
حازم نهار
راتب شعبو
رياض زهر الدين

ريمون المعلولي
سامر إسماعيل
سائد شاهين
سعيد بوعيطة
سلوى زكزك
سميح شقير
شوكت غرز الدين
شيرين عبد العزيز
عبد الرحيم الحسناوي

عبد الرزاق دحنون
عبد الله أمين الحلاق
عمّار الأمير
محمد عمر كرداس
مضر رياض الدبس
مهران الشامي
نور الهدى مراد
هدى سليم المحيثاوي
ورد العيسى

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909